وقد ينسلك فتح الصلح في الحديبية في ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ فإنه مغنم نفسي، وتقوية في نفوس المؤمنين أن استعدوا لفتح خيبر ومكة ومغانمهما، إلا أن ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ قد لا تناسب الصلح، وإنما ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ في الحديبية و﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ في خيبر ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ في فتح مكة وسواها.

و﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: هي كف أيدي المشركين عنهم في الحديبية، آية للنصرة والعزة الإلهية، وفتح خيبر بغنائمها: آية للغلبة الآتية في فتح الفتوح، ومن ثم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: صراطاً إلى فتح مكة إذ كانت شائكة ملتوية قبل الحديبية وخيبر، وتجربة المؤمنين فيهما عبّدت لهم هذه الشائكة فأصبحت صراطاً مستقيماً لاسترجاع عاصمة الدولة الإسلامية.

ثم ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على محذوف بعد «وعدكم.. فعجل.. وكف..» هو من أمثال «لتكون آية على الكافرين» إنذاراً لهم، فهدماً لصرح الكفر وطرقهم التي عبدوها إليه ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ آية بآية وصراطاً بصراط.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾

ومغانم أخرى مؤجلة بعد المعجلة ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ حيث الفتح العنوة في مكة دون حرب رغم أكثرية العِدة والعُدة للمشركين، أنه لم يكن من المقدور عليه للمسلمين، وإنما ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ حيطة إلهية وآية قدرة منقطعة النظير.

وترى أن «أخرى» هي فقط مغانم الفتح العنوة في مكة؟ أم والفرس والروم كذلك؟ أم وسائر ما إلى ذلك؟.

قد تشملها «أخرى» كلها، بما وعد الله المسلمين المجاهدين الصامدين في خطوط النار، كما مضت هنالك الإشارة إلى فتح فارس: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وفي مجالات أخرى إلى كل فتح إسلامي من هذا النمط.

وقد يبعد الشمول مضيُّ الفعل ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ فكيف تشمل مستقبلات الغنائم؟ ويقر به أنه بشارة بغنائم تستقبلهم أياً كانت: من هوازن ومكة وفارس والروم وسواها على سواء، و﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ تنفي القدرة السابقة على الغنائم اللاحقة، ولا ريب أنها ونفيها تسبق الغنيمة كيفما كانت، بشارة ملفوفة هنا، لم يحددها وهي غيب من غيوب الله، لبث الطمأنينة والرضا في نفوس المؤمنين بالله، فلتكن كما هي شاملة للغنائم الإسلامية على طول الخط، ما لم يقدروا عليها ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ابتداءً من فتح الفتوح، ومن ثم فتح مملكتي كسرى وقيصر في حرب الفرس والروم ومن ثم فتوحات أخرى[1] ما داموا هم ناصرين لدين الله، مسلمين لا مستسلمين.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أهي خاصة بما لم يقدروا عليها و﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾[2]؟ أم هي عامة، فما هي ميزة الغنائم المبشر بها هاهنا؟.

الجواب: إن لله إحاطة علم وقدرة بكل شيء على سواء كما تقتضيه ربوبيته، وإحاطة عناية بقدرته لخواص عباده انتصاراً لهم عندما ضعفوا واستكانوا، وهذه الغنائم الموعودة لهم منها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

(١) الدر المنثور ٦: ٧٥ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم، وأخرج ابن عساكر عن علي وابن عباس في الآية «فارس والروم» ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قضى الله بها أنها لكم، كما وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال «فارس والروم»، وعن عطية قال: فتح فارس، وأخرج عبد ابن حميد عن عكرمة قال: يوم حنين، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: بلغنا انها مكة.
أقول: إنها على اختلافها تؤيد عدم اختصاص ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ بفتح، مكة أو سواها، كما ولفظ الآية تساعد ذلك الشمول.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٦.

لا فحسب أنكم تغنمون هنا وهناك، فإن لكم فتحاً متواصلاً ما دمتم مؤمنين أوفياء، بشارة سارة سارية المفعول لفتوحات تترى أو لا تنهزمون:

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾:

إنها سنة ثابتة إلهية لن تتبدل، إن الكفار المهاجمين المقاتلين هؤلاء المسلمين، يولون الأدبار، سنَّة يسنها الإيمان الصامد المشفوع بنصر الله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] فلا تكفيها دعوى الإيمان أو فكرته غير البارزة في الميدان، فإن لها شروطاً يجمعها جماع الإيمان ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

ولقد ترى آيات تترى في تصريحات بطيات دعايات القتال الدفاع، قاطعة آمال الكافرين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[3] لكنها تتعلق بالجو الذي يولد فيه انتصار المؤمنين، حيث هم تاركون ولاية الكافرين (٩٦) معتصمين بالله مهتدين إلى صراط مستقيم (٩٧) متقين الله حق تقاته (٩٨) معتصمين بحبل الله لا متفرقين (٩٩) داعين إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر مفلحين (١٠٠ - ١٠١) ومن ثم: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ - ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[4]!

فلو أنهم غلبوا وجاه الكفار لم يكن تبديلاً لسنّة الله، وإنما تبديلاً لسنّة

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١١.
(٤) سورة الفتح، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

الإيمان، وتبدلاً للإسلام الصامد بالاستسلام، فسنّة الانتصار دائبة لهم ما داموا مؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾:

إنه نموذج من تلكم المواقف، حاضرة حاذرة في فتح الفتوح، أن الله تعالى كف أيدي المشركين المتطاولة عنهم، وأيديهم كذلك ومتقابلاً عنهم ببطن مكة لمَّا وردها ومتى؟ ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ تلكم الظفرة الزفرة المظفرة، وإنه لموقف مشرف عديم النظير ألا تتطاول أيدي المؤمنين المظفرين على من؟ على الذين آذوهم وشردوهم وقاتلوهم وعاملوهم طوال الرسالة ما لم يعامل به أحد من العالمين!

فبطن مكة هو داخل مكة وعقرها، لا خارجها وخارج حرمها: الحديبية، خلاف ما روت رواتها وفسرها مفسروها، ولا سيما ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يكن في الحديبية ظفر لا منهم ولا عليهم، وإنما مصالحة المهادنة، وإذا قيل عنها إنها فتح - فتح الصلح - فليس إلا لأنه فتح سبيلاً إلى فتح مكة، فقد كانت تنهار قوات المسلمين لو قاتلوا، فلم يجدوا سبيلاً لفتح الفتوح بعدما انهارت قواتهم، وانصدمت نفوسهم بقتلى.

فهنا موقفان مشرفان لفتح الفتوح، يجعلانه في قمة الفتوح في معارك الشرف والكرامة طوال التاريخ: إن كف الله أيدي المشركين الكثرة عن المؤمنين القلة، رغم أنها كانت عليهم متطاولة طوال الرسالة في مكة وإلى المدينة في كل عام مرة أو مرتين، وكانوا يستعدون دوماً ويزدادون قوة لقضاء حاسم على المؤمنين ولكن..

وموقف ثانٍ هو أشرف، أن كف الله أيدي المؤمنين المظفرين عن المشركين، كفاً للحمية وطبيعة الانتقام، خلاف ما يفعله الفاتحون

التوسعيون، ولكي يعلم العالم أن فتح مكة ما هو إلا فتحاً للقلوب لا توسعاً وانتقاماً بعد الاحتلال.

هذا - ومن ثم الآيات التالية التي تتحدث عن جو الفتح تؤيد بطن مكة وظفرها، أن ذلك كله ينحو منحى فتح الفتوح، وأن شمل فتح الصلح في الحديبية هامشياً وكذريعة له على بعض الوجوه.

إن كف أيدي المشركين هنا عن المسلمين يعم صلح الحديبية وفتح مكة، طالما كفُّ أيدي المسلمين عنهم يخص الفتح بمكة ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فإنه خاص بفتح مكة، فـ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ ظرف للثاني، والأول أعم من بطن مكة وظهرها الحديبية.

وكف أيدي الغزاة المسلمين عن هؤلاء المشركين الظالمين - الذي هو من منن رب العالمين - حجز المسلمين هنا عن ملابسات نفسية كثيرة ودقيقة لطيفة المدخل: من الزهو الذي قد يساور القلب، أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد بُعد العناء، وهو مدخل يصعب توقِّيه في القلب البشري.

ومن أمثال هذه الزهوات يؤمر الرسول ﷺ في سورة النصر أن يستغفر ربه: ليستر عنه ويسدده عنها وقد ستر: أن كف أيديهم عن المشركين.

فتراه إذ يدخل مكة فاتحاً منتصراً، مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق دعوته عنيدة؛ وعرقلت عليه، تراه يدخلها منحنياً لله شاكراً على ظهر دابته، ناسياً فرحة النصر وزهوته، عفواً رحيماً لا ينتقم.

وهذا هو الأدب الذي تتسم به النبوة دائماً، يريد الله به أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع دوماً إليها.

٣٤٥ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ

عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾:

وترى من هم أولاء الذين كف أيديكم عنهم؟ إنهم حمَلة ثالوث الضلال إذ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله والرسالة الإسلامية السامية، لا فحسب أن يكتفوا بسلبية الكفر: فلا على المسلمين ولا لهم - بل ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن تأتوه طائفين - وصدوا «الهدى» حال كونه ﴿مَعْكُوفًا﴾ صدوه ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بمكة المكرمة كما في عمرة الحديبية.

وطالما الكفر كبيرة موبقة في ميزان الله، ولكنما الصد عن المسجد الحرام وصد الهدي أن يبلغ محله... إنه كبيرة في الجاهلية أيضاً، كريهة في عرفهم الذي يعرفون.

فلم يكن كف أيدي المسلمين الظافرين بهم عفواً من الله لهم لصغر الجريمة، وإنما لحِكم أخرى بعيدة المدى قريبة الهدى كثيرة الندى، مما يأتي أو مضى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾.

فالحملة الجماهيرية لا تعرف الصديق من العدو حتى ولو عرفت الصديق، كيف وهناك ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ فلولا أن كف الله أيديكم عن مشركي مكة لكنتم تطؤوا المؤمنين مع المشركين، وطأً هو وطأة عارمة ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

لقد كان هناك بعض المستضعفين من المؤمنين في مكة لم يهاجروا ولم يعلنوا إسلامهم بُقية على أنفسهم وتقية من أعدائهم، فلو دارت الحرب وهاجم المسلمون مكة وهم لا يعرفون المسلمين المجهولين لكانت عليهم معرة تصيبهم بغير علم، فدعاية عليهم من المشركين أن كيف يقتلون أضرابهم.

إنه ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ... لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من مؤمنين

ومؤمنات كانوا بين المشركين، ومنهم من كانوا في أصلاب رجال وأرحام أمهات من المشركين، ومن مشركين قسمت لهم الهداية والدخول في رحمة رب العالمين[١].

فهذه ثلاث درجات وبركات ينتجها الفتح العنوة الرحيمة، رغم أنهم كانوا في ثلاث دركات من كفر وصد عن المسجد الحرام والهدي، وأين ثلاث من ثلاث!

هذه جوانب من حكم الله في هذا الفتح العنوة ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ من الذين يستحقون الرحمة - فـ:

﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾: بينهم، أن تفرقوا وامتازوا عن بعض فعرف المؤمنون والمؤمنات والذين يرجى منهم الإيمان، والذين في أصلابهم مؤمنون[٢] فليس التزيُّل بمعنى الزوال وكما في آية أخرى ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾[٣] فإنه تزيُّل بإزالة الغشاوة بينهم وبين شركائهم أن يعرفوهم فيعلموا أنهم ليسوا بشركاء الله، لا بإزالة أنفسهم فإن الآخرة موقف الدوام لا الزوال.

---

(١) الدر المنثور ٦: ٧١ - أخرج بسند جيد عن جماعة عن أبي جمعة قال: قاتلت النبي ﷺ أوّل النهار كافراً وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وفينا نزلت ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ...﴾ [الفَتْح: ٢٥] وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين.
أقول: وقد تشمل الآية جو الحديبية إذ كف أيديهم عن بعض فلم يبتل المؤمنون بقتل أضرابهم عن جهل، ولكنها لا تختص به إذ لم يظفرهم الله عليهم هناك، اللهم إلا في فتح مكة.

(٢) تفسير البرهان ٤: ١٩٨ - عن ابن بابويه القمي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: ما بال أمير المؤمنين لم يقاتل فلاناً وفلاناً؟ قال: لآية في كتاب الله عزوجل ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفَتْح: ٢٥] قال قلت: وما يعني بتزيلهم؟ قال: ودائع مؤمنين في أصلاب قوم كافرين وكذلك القائم عليه السلام لن يظهر أبداً حتى تخرج ودائع الله عزوجل فإذا أخرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله فقتلهم.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٨.

والمتزيلون هنا أعم من الكافرين والمؤمنين، حيث ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ لا «لعذبناهم أجمع».

و«لو» هنا تحيل العذاب الجماعي في الدنيا لجموع الكافرين إلا بتزيل تام، وكما الكافرون متزيلون عن المؤمنين يوم الدين، فالله معذبهم هناك دون مهل، كذلك يوم الدنيا لو تزيلوا فامتازوا عن المؤمنين، وحتى الذين هم في أصلاب وأرحام كافرة، وكما سبق هذا التزيل في قوم نوح وبعد صبر وعناء طويلين فاستبشر ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

ومن ثم في دولة الإمام القائم المهدي المنتظر المنتصر عليه السلام ننتظر تزيلاً ثانياً وأخيراً، أن الله سوف يعذب الذين كفروا، فلا خير فيهم ولا في أصلابهم، إذاً فهم حصب جهنم العذاب في الأولى والأخرى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2] والعذاب الأدنى الموعود للفاسقين قبل الأكبر وبعد تزيلهم في طوفان نوح، أنه ليس إلا في الرجعة في دولة القائم المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تشهد به آيات وروايات[3].

وهذان التزيلان من قبل ومن بعد قد يستحقان أداة الاستحالة «لو» كما هنا لأنهما مستصعبان[4] كأنهما مستحيلان رغم أنهما واقعان.

(١) سورة هود، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٢١.
(٣) لقد فصلنا البحث حوله في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».
(٤) لقد تزيَّل هكذا الكافرون من قوم نوح طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، على تصبُّر من نوح والمؤمنين معه، وإياس منهم حتى قلّوا، كذلك يكون التنزيل الثاني الذي نعيش انتظاره فإنه لحد الآن طال أكثر من الأول وما ندري كم طائله، اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أعوانه وأنصاره آمين.

فـ ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ . . .﴾ لم يكف الله أيديكم عنهم - و﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كف أيديكم عنهم و﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأيديكم وما يفعل الله حسماً لهم - فوجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لا يُعرفون فيما بينهم، وليدخل الله في رحمته من يشاء منهم ومن الكفار الذين يؤمنون، وممن في أصلاب وأرحام المشركين من المؤمنين، هذا المثلث البارع من الحكمة الإلهية حال دون استئصالهم في فتح مكة، إضافة إلى إبراز روح الحنان للظافرين أن القصد من هذه الهجمة الرائعة ليس تفتح البلاد والانتقام من أهلها الظالمين، وإنما تفتح القلوب المقلوبة: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كإعلام عام من على أعلام الإسلام مرفوفة عالية تبرز للعالمين أن القصد هنا وهناك: في كافة الحروب والغزوات الإسلامية، هو فقط دخول الناس في رحمة الله ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

ومتى كفروا وصدوا ذلك الصد الكافر المائر الكريه ولماذا؟ وهو في عرف الجاهلية أيضاً قبيح؟:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾:

فيا لها من حمية حامية لا يكفي لها كفرهم إلّا أن يجعلوها ويفتعلوها في قلوبهم كفراً على كفر، فإنها ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حين قالوا: لا نعرف الرحمن الرحيم! لكي يحذف الرسول البسملة عن كتاب الصلح، وإذ طلبوا شخط (رسول الله) عن اسمه ﷺ قائلين: «لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك فاكتب محمد بن عبد الله!» وذلك بعدما صدوهم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ولا يعرف التاريخ جاهلية تبلغ محلها ولا حمية جاهلة

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

توصل مداها! فإنها: حمية التعنت والتبختر والتبطّر التي لا تتقيد بعقيدة ولا منهج إلّا فوضى، مخالفين بها كل عرف وكل حمية، منتهكين كافة الحرمات والأعراف، وحرمة البيت الحرام الذي يعيشون في ظله وعلى حساب قداسته، وحرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في أية جاهلية.

فيا لهذه النفوس من قسوة وحماوة، لا تتقيد بأي ميزان إلّا ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ ويقابلها الطمأنينة الأمينة السكينة التي أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين، جنات عاليات وجاه دركات سافلات!:

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فللرسول سكينة التسديد حتى يهدئ بقمة الحفاوة واللين وجاه هؤلاء الشياطين، فلا تظهر منه أية جفاوة.. وللمؤمنين سداً للثورة الفورة التي تتطلبها تلك الجاهلية في المشركين حتى يهدؤوا في ظلال الرسول دونما فورة ولا ثورة.

فقلب المؤمن مستكن بربه، مطمئن بمآربه في سبيل ربه، ولكنه بحاجة إلى سكينة زائدة ليزداد إيماناً واطمئناناً، حيث التقوى قد تفلت وجاه نعرات الجاهلية، فبالسكينة تُلزم في ذواتهم وتندغم في إنياتهم:

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: وإنها كلمة التوحيد[1] العريقة الوطيدة، لا لفظته الخاوية عن العمل والعقيدة، وإنما الدالة منها في كافة مجالات الدلالة، فإن الكلمة هي الدالة، ففي مجال العقيدة تدل، وفي مجال العمل

(١) الدر المنثور ٦: ٨٠ - أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الافراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] قال: «لا إله إلا الله» وكما أخرجه جماعة آخرون عن آخرين كسلمة بن الأكوع وعثمان عنه ﷺ وعن علي عليه السلام وعن ابن عباس، هي رأس كل تقوى، كذلك وعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء وعن الزهري أنها «بسم الله الرحمن الرحيم». أقول وهي من فروع كلمة الإخلاص.

تدل، فلا تزال دالة فعالة حتى تستأصل كل طغوى، وتجمع كل تقوى في كافة ميادين الحياة، ولكي تخفت صوت الطغوى، مراقبة للرب في كل حركة وخالجة، داخلة وخارجة، فلا يتبطر ولا يطغى لذاته، وإنما لربه ودينه، والرب يأمر هنا بكظم فائرة الغيظ: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾.

ولم تكن لزام التقوى بعيدة عنهم تُقحم فيهم، فإنهم كانوا مؤمنين مطمئنين مستكنين بسكينة من الله - بل:

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾: كانوا أحق الناس بكلمة التقوى، وكانوا أهلها:

أهلاً لها إذ كانوا متقين، وأهلاً لها أن يزيدهم الله هدىً وتقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[1] فلا تنال زيادة التقوى ولزامها إلّا أهلوها (جزاءً من ربك عطاءً وفاقاً).

ويا لهما من معسكرين عديمي النظير في تاريخ الإنسان: مثلث السكينة التقوى بأهليتها، وثالوث الكفر الصد عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، التي تجمعها ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾!

إيمان في أحسن تقويم وكفر في أسفل سافلين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

فلما رأى الرسول رؤياه ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ في الحديبية[2] ووفى هو والمؤمنون بعهد الله وميثاقه فيها، فقد حان حين صدق رؤياه في تحقيق عمرة الحديبية في السنة المقبلة:

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) الدر المنثور ٦: ٨٠ - أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أري الرسول ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فلما نحر الهدي بالحديبية قال له أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله فأنزل الله الآية فرجعوا ففتحوا خيبر ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة. وفيه عن ابن عباس قال: كان تأويل رؤياه في عمرة القضاء.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾:

ولقد زعمت جماعة كالخليفة عمر أن هذه الرؤيا لا بد أن تتحقق في الحديبية ولذلك شكوا سائلين الرسول بكل حمية، فجاء الجواب أن صِدقها في السنة المقبلة قبل الفتح وبعد صلح الحديبية، كما سجلوه في وثيقة الصلح: أن يفسح لهم مجال العمرة ثلاثة أيام وقد فسحت، ثم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح مكة، فإنه هو دون ذلك، لا صلح الحديبية، وذلك لأن «ذلك» هنا ليس إلّا صدق رؤيا الرسول، ولم تصدق إلّا في عمرة القضاء بعد الحديبية بسنة وقبل فتح مكة بسنة.

فـ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ التي أراها إياه في الحديبية، صدقها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بحق الصدق وصدق الحق، صدقاً يصاحب الحق، والرؤيا هي:

﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولكن كيف؟

إنه صادق ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وترى أن صدق وعد الله كذلك بحاجة إلى ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؟! أجل - فإنه أدب دائب يؤدب به المؤمنون بالله أن يكونوا ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ويروضوا أنفسهم على ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حتى وفيما هو حتم حسب وعد الله كدخولهم المسجد الحرام للتطواف حول بيت الله!.

هذه المشية الإلهية يجب أن يعيشها المؤمن في صورتها الطليقة دونما تقيد بشيء حتى تستقر في القلوب، ولكي تصبح حياة المؤمن صورة وضاءة عن ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيكون في حياته كل الحياة مثالاً لمشيئة الله، ممثلاً لـ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيعيش مشيئة الله حتى فيما يراه حتماً كما وعد الله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ فهو هو الله الذي يقول هنا عن صدق الرؤيا ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ولكي نتأدب نحن بأدب الله ونستن بسنَّة الله.

ثم وليس دخول المسجد الحرام خائفين كما كان قبل الصلح، بل ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾: آمنين من بأس المشركين، محلقين ومقصرين حيث كانت عمرة القضاء، والمعتمر مخير بعد السعي بين الحلق والتقصير مهما كان الحلق أفضل وأحرى[1] خلاف يوم الحج الأضحى حيث الحلق متعين إلّا لمن استثنى.

﴿فَعَلِمَ﴾ الله ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من رحمة وحكمة بالغة، ومن تأخير لصدق هذه الرؤيا حيث ظننتموها حالاً حينها، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول لعمرة القضاء ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الذي تكرر وعده طوال الرسالة في مكة والمدينة، وهو فتح مكة.

عمرة القضاء:

روت الرواة أنه لما كان ذو القعدة من سابع الهجرة - التالي لصلح الحديبية - خرج رسول الله ﷺ حسب وثيقة الصلح إلى مكة معتمراً مع جماعة من المدينة وأخرى من أهالي الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة

(١) الدر المنثور ٦: ٨١ - أخرج مالك والطيالسي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن ابن عمران أن رسول الله ﷺ قال: رحم الله المحلقين - قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: رحم الله المحلقين - قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: والمقصرين.
وفيه أخرج الطيالسي وأحمد وأبو يعلى عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ وأصحابه حلقوا رؤوسهم يوم الحديبية إلا عثمان بن عفان وأبا قتادة فاستغفر رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة.
أقول: استغفاره ﷺ للمقصرين أعم من ذنب التقصير وسائر ذنوبهم حيث يقول الله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦] وذلك للمصدود عن إتمام مناسكه، وأما استغفاره للمحلقين فعن سائر ذنوبهم السابقة.
ولقد فصلنا القول حول حكم الحلق والتقصير في الحج والعمرة في كتابنا «أسرار مناسك، أدلة: الحج» وقد طبع باللغة الفارسية وسوف ينقل إلى اللغة العربية إن شاء الله تعالى.

(مسجد الشجرة) وساق معه الهدي، وسار بأصحابه ملبين، فلما قرب من مرّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً وظنوا أنه يغزوهم ناكثاً للعهد الذي بينه وبينهم، فأخبروا سائر مكة، فلما جاء الرسول ﷺ فنزل بمرِّ الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج، وسار إلى مكة بالسيوف المغمدة في قُربها كما شارطهم من ذي قبل، فلما كان أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد! ما عرفناك تنقض العهد! فقال ﷺ: وما ذاك؟ قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح! فقال ﷺ: لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى ياجج، فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء!.

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه غيظاً وحنقاً، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطريق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام الناقة يقودها.

وهكذا صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، ثم كان الفتح بعد عامٍ من عمرة القضاء وظهر دين الله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم ظهر في الجزيرة كلها، ومن ثم يتحقق في العالم كله في دولة القائم من عترته عليه السلام وكما وعد:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾﴾:

ذكرنا في سورة الصف طرفاً من تفسير نظيرتها ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[١] [٢] و«رسوله» هنا كما هناك وكما في ٨٢ آية أخرى[٣] تؤكد له أصالة الرسالة الإلهية، وكأنها هي الوحيدة فلا رسالة إلا له دون سواه، والمرسلون المسبقون عليه إنما يعدُّون لرسالته عدة بكل عِدة وعُدة.

فهو المرسل ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ كل الهدى ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾: الثابت الذي لا حِول له ولا محيد عنه، ثابتاً دائياً على مر الزمن ما طلعت الشمس وغربت، فلا تغرب شمس الرسالة الإسلامية منذ بزوغها إلى القيامة الكبرى، مرفوفاً أعلامها، مشعّاً وضاءً على عقول وقلوب العالمين، معطية متطلبات الحياة وحاجات البيئات من ساكني الأكواخ إلى ساكني ناطحات السحاب.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾: الطاعة كلها، من حقها وباطلها، كما في دولة القائم عليه السلام حيث الإسلام يظهر على الأديان كلها، فلا شوكة ولا كيان إلا له مهما بقيت بقية ضئيلة من سائر الأديان، فإنهم لا بد وهم تحت ظل الإسلام ورقابته ومن أهل ذمته لا صوت لهم ولا صيت[٤] مهما انحسر

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٢) ج ٢٨.
(٣) لفظة «رسوله» نجدها خاصة بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ٨٤ موضعاً من القرآن دون سواه من رسل الله إلا رسولي بالنسبة للمسيح في آية واحدة.
(٤) تفسير البرهان عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية قال: يظهر الله عز وجل في الرجعة وفيه عن أبي الحسن الماضي قال: يظهر على جميع الأديان عند قيام القائم..

سياسياً في ردح من الزمن لانكسار أهليها وارتجاعهم عنها كنظام حيوي شامل، ولكنه حتى في الناحية السياسية لم ينحسر إلا تاركوه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

وإظهار ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: الإسلام - على الدين كله، منه إظهار بالحجة والآيات وهو كائن ويستمر منذ بزوغ الإسلام، وإن كان مبتلى بالخصام في حرب سجال طوال تأريخه المجيد.. وهذا الإظهار كائن بأصل الرسالة وليس غاية لها، والنص يجعله غاية ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

ومنه إظهاره في واقع الحياة، غلَباً في الحكم على غلَبَة في الحجة وهو لا محالة كائن في الدولة الأخيرة الإسلامية.

وليس الإظهار هو الإمحاء حتى لا يبقى دين إلا وهو يفنى، وإنما هو الغلبة على الخصام رغم وجودهم، ولكنهم ضعفاء هزلاء متخالفون مع بعض متعادون: من اليهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ... وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢] ومن النصارى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ... فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[٣].

وأما من سواهم من مليين ومشركين وماديين فلا نعرف عنهم في دولة القائم شيئاً، هل هم كذلك كائنون على ضعف أم بائدون، وإنَّ ما نعرفه هو ظهور دين الحق على الدين كله، وعلّه يلمح إلى وجود الدين كله حتى يظهر الإسلام على الدين كله.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٤.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾: ظهوراً بآياته في قرآنه المجيد، فإنه قوي بذاته، شاهد لظهوره بمؤهلاته، زاحف بلا سيف ولا حيف، لما في كيانه من استقامة مع الفطَر والعقول، ومع نواميس الكون ككل، وما فيه من استجابة لمتطلبات الحياة والأحياء ما طلعت الشمس وغربت.

وفيما يلي - لآخر آية من سورة الفتح - تلميح مليح بشرطي ظهور هذا الدين في شطري الرسول والمرسل إليهم، فيها رمز استمرارية الفتح المبين، دون وقفة على الفتح الأول، فلا يزالون فاتحين ما داموا يحملون هذه الرسالة السامية كما يجب وقدر ما حَمَلوا مما حمِّلوا:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

آية عديمة النظير تحمل تعريفاً بالبشير النذير والذين معه بتمثيل وتقرير من التوراة والإنجيل يجعلهم مثلاً عالياً في تاريخ الإنسان منقطع النظير، قاطعة آمال المسلمين المستسلمين، مزيفة كيان من يدعون الصحابة كأنها تُرس عن كل قبيح، فهم لصحبتهم الرسول نبراس منير، مخطئين معية الرسالة بصحبة زمنية ومعاصرة!.

إنها تحمل صورة رائعة عن سيرة الذين مع الرسول ﷺ التي تجمعها نفس الصيغة: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وتفصلها فصائل الآية في سلبيتهم وجاه الكفار: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وايجابيتهم بينهم أنفسهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ كحالتين جماعيتين تتقدمان على سائر الحالات، من لقطة تصورهم في محاريب العبادة بعد حنانهم الجماعي وحرابهم ضد الكفار: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ بما يعنيه ركوعهم وسجودهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ دون أن تكون مجرد صور وهيئات، فلأنها تكون من الأعماق تصوِّر في سيماهم صورة معنوية شاملة: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ كما تأتي في آيات (و) أما ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ وكما في آيات تأتي ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ . . .﴾.

ويا له من مثلث بارع من الكتب السماوية الثلاث تعريفاً بالذين معه، وأن لو استقاموا على الطريقة المحمدية لكان حياتهم فتحاً دائباً بيناً و﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾:

اسم واحد ووصف واحد: ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ دون أن ينسب إلى بلده وهو أم القرى وقبلة الموحدين، أو إلى قريب له في نسب أو سبب أم ماذا! إنما هو ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وكفاه مفخرة بين العالمين أن يحمل هذه الرسالة السامية الخالدة، ولا تجده يوصف في القرآن إلا بعبودية أو نبوة أو رسالة، وأما الميزات الأخرى الخيالية فلا أثر لها في القرآن كله!.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾:

معه في رسالته الإلهية تصديقاً وإيماناً وتطبيقاً، ومعه في حملها كما حمَل، دعوة إليها وجهاداً في سبيلها وتصبُّراً لمشاقها وتحملاً لحرماتها وحرماناتها!.

فلا تعني معية الرسول - التي لا تختص بزمان أو مكان أو قوم - معية الزمن حتى تختص بصحابته المعاصرين، أو معية المكان لكي تنحصر بمن عاينوه وشاهدوه، فتنحسر عمن بعده من التابعين وأتباعهم إلى يوم الدين، ولا معية نسبة أو قرابة أو لغة أم ماذا! مما لا تقرب أصحابها إلى رسالة السماء وقد تبعد عنها، كما أبو لهب البعيد البعيد الذي كان يحمل كافة هذه المعيات إلا الرسالة، وقد نزلت في تبابه سورة فذة، ثم نرى سلمان الفارسي الذي لم يحمل إلا معية الرسالة يصبح سلمان المحمدي!.

٣٥٩ أجل - إنه لا معية هناك معنيّة إلا معية الرسالة، كما يصدقها وصف محمد مسبقاً بالرسالة، ومواصفاتها اللاحقة التي لا تحمل زماناً ولا مكاناً

ولا لغة ولا قرابة، فبإمكانك أن تكون معه قريباً إليه، وأنت بعيد عنه عرض المكان، طول الزمان دون أية نسبة أو قرابة، أو أن تكون عليه (لا معه) غريباً عنه وأنت تعاصره وتواطئه مشاهداً له ليل نهار وأنت من أنسب أنسبائه أو أقرب أقربائه - فـ«إن ولي محمد من والى الله ورسوله وإن بعدت لحمته وإن عدو محمد من عادى الله ورسوله وإن قربت لحمته» إذاً فلا تعني هذه المعية إلا أن تنحو منحاه في رسالة السماء تطبيقاً ونشراً له في الأرض:

فكما أن الرسول كان شديداً على الكفار دون مواربة ولا مداهنة ولا أنصاف حلول، كذلك:

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾:

ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وهذه هي سمة الإيمان ألّا تعرف في سبيل الله أياً من هذه وتلك: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾[1].

ولا تعني الشدة على الكفار الإساءة إليهم وإن كان يؤمل منهم رشد، وإنما السياج القويم الحاجز بينهم وبين الكفار، لا يسمح بتدخل في شؤون المسلمين ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو أخلاقياً أم ماذا؟ ثم لا يسمح لمسلم أن يوادهم ويواليهم، فآخر أمرهم معهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[2] وأوله أن يهدوهم الصراط المستقيم، دون أن تكون هناك متوسطات في مداهنات أو مواربات.

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الكافرون، الآية: ٦.